الجمالُ الصوتي للقرآن الكريم
وأثره النفسي على السامع

دكتور

الحسيني عباس حلمي عيسى

كبير باحثين – بكلية العلوم الإسلامية للوافدين

جامعة الأزهر الشريف

شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

إصدار يناير ٢٠٢٠م

٠

المقدمة

الحمد لله القائل : { لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ }(1).

والصلاة والسلام على أفصح العرب قاطبة ومن " أُوتى جوامع الكلم " سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحابته ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .وبعد،،

فالقرآن الكريم مُؤلف من الحروف التي يُؤلِف منه العرب كلامهم ؛ إلا أن إعجازه لا يمكن أن ينكره منكر .

ولقد انفرد القرآن الكريم دون غيره من سائر الكلام الجمال في لفظه ، ومعناه ، وتصويره ، وطريقة أدائه بالجمال الصوتي . يقول الرافعي في كتابه إعجاز القرآن [نزل القرآن علي رسول الله صلي الله عليه وسلم بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة وما تقوم به ، مما هو السبب في جزالتها ، ودقة أوضاعها ، وإحكام نظمها واجتماعها من ذلك علي تأليف صوتي يكاد يكون موسيقيا محضا ،في التركيب . والتناسب بين أجراس الحروف ، والملائمة بين طبيعة المعني ، وطبيعة الصوت الذي يؤديه ، فكان مما لا بد منه بالضرورة أن يكون القرآن أملك بهذه الصفات كلها وأن يكون ذلك التأليف أظهر الوجوه التي نزل عليها .

ثم إنه يتعدد فيه التأليف تعددا يكافئ الفروع اللسانية التي سبقت بها فطرت اللغة في العرب ، حتي يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ، ولهجة قومه ، توقيعا يطلق من نفسه الأصوات الموسيقية التي يشيع بها الطرب في هذه النفس، مما يسمونه في لغة العرب بيانا وفصاحة ،وهو في لغة الحقيقه"الموسيقي اللغوية" .

وإذا تم هذا النظم للقرآن مع بقاء الإعجاز الذي تحدي به الإنس والجن ، ومع اليأس من معارضته على ما يكون في نظمه من تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات بحسب ما يلائم تلك الأحوال في مناطق العرب ، فقد تم له التمام كله](2).

وإذا كان فن الأداء يعتمد كثيراً علي عناصر التأثير والايحاء فأنه ليس هناك أعمق تأثيرا ، وأبعد في الإيحاء من ذلك التنغيم الصوتي المجسم للكلمات ، أو تلك العبارة الموسيقية التي يكتمل بها تأثير الصورة الأدائية في الوجدان ، بما تحْدثه من روعة الجرس والإيقاع ، بجانب ما يحدثه التخيل ، والتصوير للكلمات في النفس وليس من

---

(1) **الحشر : ٢١/٥٩ .**

(2) إعجاز القرآن ص ٤٦ .

شك في أن الموسيقي الرفيعة المعبرة التي تسمو بمشاعر الإنسان ، إنما هي لغة العواطف وخطاب الوجدان .

ولنغماتها درجات من الشدة أو الضعف ، والقوة أو اللين والسرعة أو البطء ونحوذلك من الصفات التي تصحبها آثار وجدانية وألوان عاطفية ، من نشاط أو فتور وحزن أو سرور وثبات أو اضراب .....إلى غير ذلك من أنواع اليقظة النفسية التي تجيء عن طريق حاسة السمع في الإنسان ....هذا بجانب أن الإيقاع الصوتي أ و العبارة الموسيقية تُنشط النفس ، وتبعث الإحساس بالسمو والقوة .

ومن ثم يصبح الأثر شاملا ، ليس نابعا من الأذن فحسب ، بل يصبح قوة زاحفة تنفذ إلي أغوار النفس ، لأن هذا الإ يقاع الصوتي في الحقيقة إنما يُحدث رنينا في الجهاز الإنساني كله.

وقد يستولي هذا الأثر على المشاعر كلها حين يرهف الإحساس وينشط الانفعال وهذا يصبح الإنسان مستعدا للتأثير الإيحائي ويشعر بأنه في عالم آخر مليئ بالخواطرحافل بالأفكار[٣] .

[وإذا تأملنا حقيقة ما ننطق به من كلمات لوجدنا أنه لونا من الموسيقى، لأن الجهاز الصوتي أشبه بمجموعة من الآلات الموسيقية وتخرج من الألفاظ بنغمات مختلفة ودرجات متفاوتة من الشدة أوالضعف، والسرعة أوالبطيء .... وغير ذلك من الصفات التي تنتج عنها تلك النغمات الموسيقية المتباينة][٤].

والذي يهمنا هنا ، هو أن اللغة بما لها من ناحيتين أساسيتين وهما ناحية اللفظ ، وناحية المعني ، لها أيضا ذلك الطابع الموسيقي بما تشتمل عليه الكلمة من حركات وسكنات وحروف تُمد وحروف لا تُمد .

فكل ذلك وغيره يترك في النفس أثرا متنوعَ الأوضاع ، يجعل الإنسان يشعر بأن أعصابه تستريح من النغم الذي تثيره الكلمة بجانب ما توحي به إلى النفس من المعاني والأفكار والذكريات .

وسيكون بحثي في فصلين :

المطلب الأول : تراكيب الجمال الصوتي في القرآن الكريم .

المطلب الثاني: مقاصد الجمال الصوتي

---

[٣] ينظر : صلاح الدين عبد التواب – رسالة دكتوراة في الإعجاز القرآني بكليةاللغة العربية بالقاهرة ص٣٢٧.

[٤] ينظر : الأصول الفنية للأدب ص ٢٢.

المطلب الأول

تراكيب الجمال الصوتي في القرآن الكريم .

اذا تتابعت الكلمات ، وهي على حالتها تلك ، بحسها وجرسها ولين مخارجها ، أو تتابعت

بفخامة ألفاظها وقوتها وجزالتها ، فإنها تُكون صورة تصحبها موسيقاها . ومن ثم يستجيب العقل والوجدان لداعيها ، ثم لا تلبث أن تصحبها مواقف نفسية متأثرة بها منفعلة لها ، من رضاء واطمئنان وهدوء إذا كان الإيقاع عذبا وهادئا ناعما .. وقد ينعكس هذا الأثر ، فيكون الفزع والاضطراب ، إذا كان الإيقاع غليظا صاخبا يَقذف بالصواعق والرعود .

ومنذ أن تلقت آذان الناس كلمات القرآن الكريم وامتزجت بها مشاعرهم ، وقد حسوا فيها ضمن ما أحسوه ، ذلك الجمال الصوتي الذي لم يعهدوه في غيره من الكلام . ومن ثم كان يقينُهم بأن كلاما بهذه الروعة وذلك الجلال لا يمكن أن يصدر أبدا عن قول بشر ، يكفي في هذا شهادة واحد من أعدائه ... والفضل ما شهدت به الأعداء وهو الوليد بن المغيرة .

ففي قصة إعراضه وتوليه رُويت روايات كثيرة ملخصها : أن الوليد بن المغيرة سمع شيئا من القرآن الكريم فكأنما رق له فقالت قريش : صبا والله الوليد ، ولتصبوَن قريش كلهم . فأوفدوا اليه أبا جهل يثير كبرياءه ، واعتزازه بنسبه وماله ، ويطلب منه أن يقول في القرآن الكريم قولا يَعلم به قومه أنه له كاره . قال : "فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيدة ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وانه ليحطم ما تحته ، وانه ليعلو وما يُعلي عليه ". قال أبو جهل : والله لا يرضي قومك حتي تقول فيه : قال فدعني أفكر فيه ، فلما فكر قال : إنْ هذا إلا سحر يؤثر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه ؟ وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

" إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ".(٥)

وإذا كان كلام الله خير شاهد بنفسه على فضله ، فإن أمثلة تلك الوقائع تبين مدى تأثيره في النفوس حتى لدى أعدائه الضالين المكذبين .

وجاء دور العلماء وهم يحاولون في دراساتهم حول القرآن أن يقفوا على مظاهر الإعجاز فيه ، فبهرهم من جماله الصوتي ما استوقفهم واسترعي انتباههم . وجعلهم يفردون لهذا الجمال حظه من العناية والبحث وهم يطوفون مع آيات القرآن في الافاق . حتى لقد بلغ الأمر من شدة الاهتمام بهذا الجمال الصوتي في القرآن ، وإن كان الكِتَابُ الوحيد في الوجود الذي تُوضع من أجل تلاوته تلك القواعد والأصول ، وهي التي حفلت بها كُتب التجويد وعُني بها علم القراءات ، وذلك حتى تَخْلُص لكلمات الله تلك الحلاوة الصوتية الرائعة ، وهي تُحدث بدورها أعمق الاثار في نفوس القارئين والسامعين .

ومن ثم كان ضمن ما اتجه إليه أسلوب القرآن ... وصولا إلى التأثير في مختلف النفوس التي تباينت طباعها وأمزجتها ... وهو عنصر الصوت . حيث إن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وقد كان هذا الانفعال بطبيعته مع التتنويع الصوتي بما يُخرجه من المد أو الغنة أو اللين أو الشدة ، وبما يُهيىء له من الحركات المختلفة ، وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس ما أصولها] (٦) .

ومن أجل هذا سبقت أسجاع القرآن وفواصله ، وبرزت تلك الخاصية الصوتية كظاهرة من ظواهر الإعجاز في كتاب الله ، والتي من أجلها سُمي قرآنا دون غيره من الكلام ـ لأنه مقروء ـ ولا يصل إلى منتهاه من الروعة والتأثير إلا بتلاوته وسماعه .

وصدق الله العظيم حيث يقول " وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ".(٧)

---

(٥) **المدثر : ٧٤من الآية رقم ١٨-٢٤.**

(٦) **إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٢٦ .**

(٧) **الإسراء : ١٥/ من الأية رقم١٠٦- ١٠٩.**

وحتى يتحقق ذلك التأثير المطلوب ، كان قول الله تعالي : " **وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** " (٨). بل وكان الأمر بترتيله ترتيلا ، لا بمجرد قراءته كيفما اتفق وذلك حتى يُكتملَ أثرُه ويَعظمَ وقعُه .. قال تعالي: " **وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا** "(٩) [أي بينه تبيينا وفصله تفصيلا بقراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف ، وإشباع الحركات ، فذلك أعونُ على تأمله ، وأثبتُ لمعاينه في القلب وأعظمُ تأثيرا في النفس](١٠) .

ولعل المتتبع لهذا الجمال الصوتي في تراكيب القرآن الكريم ، أو ذلك الإيقاع الموسيقي فيه ـ إن صح هذا التعبير ـ يجده قد تألف من عناصر شتي : من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة ، ومن تناسق الايقاعات بين الكلمات في الفقرة الواحدة ومن اتجاهات المد في الكلمات. ثم من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات ،ومن حذف بعض حروف المد من نهاية الكلمة ، ومن زيادة حرف في نهاية الكلمة " كهاء السكت " وكل ذلك بما يعبر عن المعنى المراد بأدق وأصدق ما يكون التعبير ، بل ويهييء النفوس إلى تمثل المعنى في أعماقها ، وكأنه بارز شاخص أمامها ولا يكاد يغيب عن وجدانها .

والعجب بعد هذا كله أن عبارات القرآن طالما يكثر تردادها بمختلف الإيقاعات والترتيلات ، وهي مع هذا لا تزداد على كثرة الترداد إلا رونقا وحلاوة .

وهذا هو ما أشار إليه ابن قُتيبة ـ قديما ـ وهو يبين تلك الخاصية الصوتية التي تَميز بها القرآن الكريم عن غيره من الأساليب . لأنه وإن كانت تلك الأساليب على تلك الإيقاعات الصوتية المعبرة ، فإنها لم تخل بعد من الإحلال مع طول الترداد .

أما القرآن ، فمن أسرار إعجازه أن جعله الله [متلوا على طول التلاوة ، ومسموعا لا تمجه الآذان ، وغضا لا يَخْلَق على كثرة الرد وعجيبا لا تنتهي عجائبه](١١) .

يقول الشاطبي في وصف القرآن الكريم :

وخير جليس لا يمل حديثه   وترداده يزداد فيه تجملا

ويجيء (الرماني) ليُعنى بدوره بتلك الخاصية الصوتية في القرآن الكريم وكان ذلك في باب الفواصل التي يطلقهاعلي نهايات الآيات . وهو يحاول جاهدا أن يبتعد عن استعمال كلمة " السجع " ـ وقد كانوا قديما يتحرجون من أن يُقرنوا بين

---

(٨) **الأعراف : ٢٠٤/٧.**

(٩) **المزمل : ٤/٧٣ .**

(١٠) **الكشاف : ٢١٦/٣ .**

(١١) **ينظر : تأويل مشكل القرآن ص٣.**

السجع والقرآن ـ ويوافقه في هذا ـ القاضي الباقلاني ـ حيث يري أن الفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ؛ ذلك لأن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها [١٢] .

ثم يأخد كلا من الرماني والباقلاني بعد ذلك في عرض الأمثلة العديدة لهذا الجمال الصوتي النابع من تلك الفواصل في القرآن الكريم .

ولعل فيما ذكره الزركشي نقلا عن الرماني والباقلاني وغيرهما ما يؤكد اهتمام العلماء منذ القديم بهذا اللون الجمالي الذي تفرد به أسلوب القرآن عن غيره من الأساليب .

وفي معرض الحديث عن تقسيم هذه الفواصل باعتبار المتماثل والمتقارب في الحروف ، يشير الزركشي إلى أن [الفواصل تنقسم إلى ما تماثلت حروفه في المقاطع ـ وهذا يكون في السجع ـ وإلى ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل ـ وهذا لا يكون سجعا ـ .

ولا يخلو كل واحد من هذيْن القسميْن ـ أعني المتماثل والمتقارب من أن يأتي طوعا سهلا تابعا للمعاني أو متكلَفا يتبعه المعاني .

فالقسم الأول هو المحمود الدال على الروعه وحسن البيان والثاني هو المذموم .

فأما القرآن الكريم فلم يَرد فيه إلا القسم الأول ، لعلوه في الفصاحة وقد وردت فواصله متماثلة ومتقاربة ....

مثال المتماثلة قوله تعالى " وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ "[١٣] .

وقوله تعالى " ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ "[١٤] .

وقوله سبحانه " وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ "[١٥] .

---

[١٢] **ينظر : النكت في إعجاز القرآن ص ٩٠ .**
[١٣] **الطور : ٥٢/من الأية ١-٤ .**
[١٤] **طه : ٢٠/ من الآية ١-٨ .**
[١٥] **الفجر : ٨٩/من الآية ١-٤ .**

ومثال المتقارب في الحروف قوله تعالي "ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ "[16]

وقوله تعالى :"قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ "[17]

وأمثال هذا كثير ، وهذا يسمى سجعا قطعا عند القائلين بإطلاق السجع في القرآن،لأن السجع ما تماثلت حروفه][18] .

وحتى لا يتسرب إلى الأذهان أن أسجاع القرآن أو فواصله إنما تأتي لمجرد الحيلة اللفظية دون اعتبار للمعنى ، يرى الزركشي أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة ، مقاطع الكلام وأواخره ، وإيقاع الشييء بما يشاكله ، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولا ، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض ، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك[19] .

ومن لطيف ما ذكره الزركشي في معرض اختلاف الفاصلتيْن في موضعيْن والمُحَدِّث عنه واحد .. قوله تعالي :"**وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ** "[20]. وفي قوله تعالى : "**وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ** "[21]

قال القاضي ناصر الدين بن المنير في تفسيرة الكبير " كأنه الله تعالى يقول : إذا حصلت النعمة الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها ، لحصل ذلك عند أخذها وصفان : كونك ظلوما وكونك كفارا ، ولي عند إعطائها وصفان وهما :

أني غفور رحيم أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ، ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء " ، وهو حسن .

لكن بقي سؤال آخر وهو : ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم ، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه ؟

---

[16] **الفاتحة :١/الآية ٣،٤ .**

[17] **سورة ق : ٥٠/الآية ١، ٢.**

[18] **ينظر : البرهان ٧٢/١- ٧٥ .**

[19] **ينظر : البرهان ٧٨/١ .**

[20] **ابراهيم : ١٨/١٤ ى.**

[21] **النحل :١٨/١٦ .**

والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه ، فناسب ذلك عقيب أوصافه .

وأما آية النحل فسيقت فى وصف الله تعالى واثبات ألوهيته وتحقيق صفاته ، فناسب ذكر وصفه سبحانه ، فتأمل هذه التراكيب ما أرقاها فى درجه البلاغة)[٢٢].

فهذه الأمثلة وغيرها أراد الزركشي من عرضها أن يؤكد أن السجع أو الفاصلة القرآنية إنما تأتي دائما في مكانها المكين وقرارها الذي لا مستقر لها سواه.

فهي لا تأتي لمجرد تحسين الصوت ، بل هي أولا يستدعيها المقام فتلبيه ، ثم هي ثانيا تجمل وتكمل معناها بكل ما أودع فيها من وسائل التجميل والتحسين ..

ومن الأمثلة التي ذكرها : زيادة هاء السكت على ياء الكلمة أو يا ء المتكلم ، كما في **قوله تعاالى** : " **فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾** "[٢٣] .

وقوله تعالي تصويرا لكل حال من حال المؤمن والكافر يوم القيامة " **فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ** ".

" **وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ** "[٢٤] .

وإذا كانت الزيادة بالحرف تأتي لتُحدث تلك الروعة في هذا الأداء ، وذلك الإيقاع الصوتي الجميل ، فقد يكون نقصان الحرف له أيضا ذلك التأثير .

كما في **قوله تعالي** :" **وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ** "[٢٥]

وياء "**يَسۡرِ** " حُذفت في السياق ليتحقق ذلك الانجسام الصوتي ، مع " الفجر ، وعشر ، والوتر وحجر " .. ثم ليتحقق ذلك الإيحاء في " **يَسۡرِ** " تلك اللفظة وهي تغمر النفوس

---

[٢٢] **ينظر : البرهان ٨٦/١ .**

[٢٣] **القارعة : ١٠١/ من الآية ٦-١١ .**

[٢٤] **الحاقة :٦٩/ من الآية ١٩-٢٩ .**

[٢٥] **الفجر ؛: ٨٩/ من الآية ١-٥ .**

إحساسا بهذا الليل الساري على هيئة واتئاد فلا تلبث أن تخلد معه إلى الراحة والسكون.

وقد يُخطف الحرف في التعبير خطفا ، كما في قوله تعالي :"أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ"[٢٦] .

فقد خطفت ياء المتكلم فى " يَهْدِينِ – وَيَسْقِينِ – يَشْفِينِ " محافظة على حرف التقفية مع " تَعْبُدُونَ - ٱلْأَقْدَمُونَ وٱلْعَٰلَمِينَ - وٱلدِّينِ ".

ومثل <u>هذا قوله تعالى</u> :" يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ "[٢٧] .

فالتالى لهذه الآيات إذا لم يَخطف الياء فى " ٱلدَّاعِ " ، أحس ما يشبه الكسر فى وزن الشعر خاصة وأن هذه الآيات تتناسب مع الفواصل السابقة واللاحقة لها .

فالسورة من أولها " ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ " وآخرها " إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ " ، تتناسب فواصل الآى مع الجمال الصوتى فى السورة كلها ، حتى ذلك الإيقاع المتقارب السريع .. وهو مع سرعته على أتم وأدق ما يكون التعبير والتصوير.

وواضح أن أمثال هذه الفواصل التى تنتهى بها الآيات فى القرآن الكريم ليست إلا صورة تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمال موسيقي .

كما يقول الرافعي وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يُساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب .

وتراها أكثر ما تكون بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقي نفسها أو بالمد ، وهوكذلك طبيعي في القرار .

---

[٢٦] **الشعراء : ٢٦/ من الآية ٧٥-٨٢ .**

[٢٧] **القمر : ٥٤/ من الآية ٦-٨ .**

فإن لم تنته بواحدة ، من هذه ، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى ، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه .

وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى.

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة وأثرها الطبيعى فى كل نفس ، فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كلَ نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره [٢٨] .

وتمشيا مع هذه الطريقة القرآنية فى ذلك الاستهواء الصوتى فلقد كان هناك أيضا الكثير من الآيات وليس فيها عُدول عن القياس ، ومع ذلك فان فيها من جمال الإيقاع ما يؤكد أنها لو جاءت على غير هذا الترتيب والتركيب لاختل النظام .

وللتدليل على هذا ــ مثلا ــ تجد قول الله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام

" **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا** "[٢٩] .

فلو تغير ترتيب الكلمات مثلا ، أو تغيرفقط وضع كلمة " **مِنِّي** "وجعلت سابقة لكلمة " **ٱلْعَظْمُ** "ليصير النظم : **قال رب إنى وهن منى العظم** ــ لحدث فى الكلام إذنْ ما يشبه الكسر فى وزن الشعر أيضا ،وذلك لأن كلا من الكلمتين فى توازن تام مع الأخرى فى الجملة .." **قَالَ رَبِّ إِنِّي** "- " **وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي** ". وهذا يكون الإحساس بهذا التنغيم الجميل ، وذلك الايقاع العذب بين كل من " **إِنِّي** " و "**مِنِّي** " لا يكون هذا الإيقاع لو حدث ذلك التبديل ، والتغيير بين الكلمات ، ومثل هذا كثير في آيات الله البينات .

[وهكذا تتجلى تلك الموسيقي الداخلية في بناء التعبير القرآني موزونة بميزان شديد الحساسية تميله أخف الحركات والاهتزازات ولو لم يكن شعرا أو تقيد بقيود الشعر الكثيرة التي تحد من الحرية الكاملة في التعبير الدقيق عن القصد المطلوب .

ولعل مما يزيد الأسلوب القرآني روعة ذلك الانسجام التام بين الإيقاع الصوتي في الآيات وبين الموقف الذي تعبر عنه الكلمات ، حيث يتنوع الإيقاع بتنوع الأجواء المصاحبة له ، كما في قوله تعالي تصويرا لرهبة الموقف أمام الكافرين

---

[٢٨] **ينظر : إعجاز القرآن ص٢٢٢-٢٢٩ .**

[٢٩] **مريم : ٤/١٩ .**

" كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي " (٣٠) .

فبينما تُدوي الكلمات بوقعها وإيقاعها لتصك آذان المكذبين كما في " دُكَّتِ " و " دَكّٗا دَكّٗا " و "صَفّٗا صَفّٗا" – و" وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ " و " يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ " و "يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ" .

إذا بجانب ذلك الصخب وهذا الضجيج وإزاء هذا الموقف المهيب الرهيب موقف يختلف عنه كل الاختلاف ، تصوره أيضا الكلمات بوقعها إيقاعا ، ولكنه إيقاع فيه الراحة والسكون ليُهديء من روع النفوس الآمنة بربها " يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي "(٣١).

وهناك من أنواع الإيقاع الصوتي الجميل في القرآن إيقاع يبعث في النفوس القوة والنشاط ، ويسمو بالأرواح لما يحمله من معاني الجمال والجلال ، ويملأ القلوب إيمانا واطمئنانا ، بما تبدله فيها من نزعات قد تنحرف أو تميل ، إلى إشراقات الأمل ودواعي الهدوء النفسي العميق والتسليم لله رب العالمين . ولعل كل هذا وأكثر منه يتمثل في آيات الدعاء والرجاء :

منها : " إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ "(٣٢)

---

(٣٠) الفجر : ٨٩/ من الآية ٢١-٢٥ .

(٣١) الفجر : ٨٩/من الآية ٢٧ - ٣٠ .

(٣٢) آل عمران : ٣/من الآية ١٩٠- ١٩٤ .

وعلي هذا النمط من الروعة والإبداع تنساب آيات الدعاء والرجاء فى القرآن ، فلا عجب أن تصحبها في إيقاعتها العذبة الرخيمة الملائمة لجوها . ومن ثم كانت الكلمات المطولة المموجة المنسابة فى هدوء الى أعماق الناس ، فتملأ قلوب الأتقياء هدى ونفوسهم رضا وتجعلهم يرددون ولايملون :

"رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ "][٣٣]

هذه أمثلة - من كثير لايحصى - للجمال الصوتى فى آيات الله وهى على مافيها من تناسق تام بين السورة والإطار من شتى الجوانب ، وبين مفردات الموقف ووحداته من كل جانب .

وتأتى الموسيقى المصاحبة للموقف بإيقاعها المناسب للسياق العام ، ليتلقى بعد كل هذا جمال التعبير مع جمال التصوير وهما يتسقان مع سمو الأهداف فى ذلك الجو القرآنى العجيب .

ولعلنا نكون قد لمسنا ما لهذه الايقاعات الصوتية فى أسلوب القرآن الكريم من إشعاعات لفظها الخاص فى شتى المواضع ، تبعا لقصر الفواصل أوطولها ، وتبعا لانسجام الحروف فى كلماتها المفردة ، وانسجام الكلمات فى جملها المركبة .

ثم نكون قد لمسنا كذلك هذا النسق القرآنى البديع وقد جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعا ، حيث أُعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة .

كما كان له فى الوقت ذاته من خصائص الشعر تلك الموسيقى الداخلية ، وهذه الفواصل المتقاربة أو المتماثلة فى الوزن والتى تغنى عن التفاعيل ، فأتى بذلك نسيجا وحيدا بل وفريدا فى نوعه ، يؤدى غرضه الدينى فى وضوح ويسر ، ثم ينطلق فى سمو إلى عالم الفن الرحيب لا تحده قيود الغرض المحدود .

ولعل تلك الخاصية المتميزة فى أُسلوب القرآن هى التى جعلت أدنى الألقاب إلى القرآن فى خيال العرب قديما أنه شعر ، لأنهم وجدوا فى توقيعه هزة لا يجدون شيئا منها إلا فى الشعر .

ولا عجب بعد ذلك فى أن يرجعوا إلى أنفسهم ليقروا أنه ماهو بالشعر ، لأنه ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ولا فى قصيده .

ثم لاعجب فى أن تردهم هذه الحيرة الى أن يقولوا أنه ضرب من السحر لأنه جمع بين طرفى الاطلاق والتقييد فى حد وسط فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

---

[٣٣] ينظر : صلاح الدين عبد التواب – الدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآني بكلية اللغة العربية بالقاهرة

ص ٣٤٠-٣٤١ .

وهكذا ترى كلاما ليس بالحضرى الفاتر ولا بالبدوى الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها ، وقدر فيه الأمران تقديرا لا يبغى فيه بعضهما على بعض ، فإذا هو مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتيْن ، أوكأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل عندها تتلقى أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم (٣٤) .

وهكذا - أيضا – تبدو خاصية التأليف الصوتى فى جمالها وروعتها فى القرآن الكريم ، كظاهرة من أقوى ظواهر التأثير فى نفوس القارئين والسامعين .

بل هى التى كانت أول ما استرعى انتباه الناس منذ أن طرق آذانهم وانساب الى أعماقهم هذا المجال التوقيعى فى لغة القرآن .

---

(٣٤) **ينظر : النبأ العظيم – لمحمد عبد الله دراز ص ٩٥-١٠٠ .**

المطلب الثاني

مقاصد الجمال الصوتي

مما لاشك فيه أن الأثر النفسي يعد الهدف الأساسي لكل مقاييس الجمال التي تَوصل اليها علماء الإعجاز في القرآن الكريم .

وإذا كانت خصائص الجمال الصوتى قد برزت فى الأسلوب القرآنى وهى مكتملة فى صورتها المثلى ، فانه لم يكن وراءها من مقصد سوى أن يكون ذلك الجمال وسيلة إلى إبلاغ الحق الذى جاءت به الآياءت المحكمات خطابا إلى القلوب لتؤمن ، وإلى النفوس لتستقر إلى العقول لتقتنع وتستجيب.

وليس معنا هذا أن ما رآه علماء الإعجاز فى أسلوب القرآن من ظواهر جمالية هو كل ما فيه من الجمال والجلال ، بل إنهم جميعا وبلا استثناء بعد أن بذلوا جهد الطاقة فى دراساتهم من أجل التعرف على دلائل الاعجاز فى كتاب الله . فقد أقروا بأن هذه الروح التى قد أضفاها الله سبحانه على الكلم في حركتها وصورتها أعظم من أن يُدرك سرها .

ولذا لم يلبثوا جميعا أن انفعلوا بآيآت الله ، وسجلوا انبهارهم بهذا الإعجاز الذى لا ينال ، بعد أن حاولوا التعرف على بعض من أسراره ومظاهره .

والحق أن كل ما توصل إليه العلماء من وجوه الإعجاز بعد طول هذه الدراسات وعمقها ، لم يكن كل شيء بلغ به القرآن إعجازه ، فلا زال هناك الكثير لم نعرف بعد أسراره ، ولم يساعد على ما عرف إلا العلم والخبرة والمران ، مع الحس المرهف والذوق السليم .

كما أن كل ما توصل اليه العلماء من هذه الوجوه مؤداه إلى ظاهرة فى القرآن بارزة ، وهى عظم تأثيره فى النفوس بما لم يبلغه أرقى كلام الناس .

ولم يكن ليبلغ هذا الأثر الأعظم إلا من وسع كل شيء علما وأحاط به خبرا ، فهو الأعلم بأهواء النفوس التى خلقها ، وأعلم بطباعها وأمزجتها وما يؤثر فيها ، ومن ثم الخبير بكيفية خطابها والتغلغل في أعماقها فأتي كلامه مناسبا لها في كل حالاتها سواء في التبشير أو التحذير وفي الوعد أو الوعيد... وصدق الله العظيم " **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** "[٣٥] .

فإذا وقفنا في كل ما سبق علي ما توصل إليه علماء الإعجاز من مظاهر الجمال والجلال في كتاب الله ، فلم يكن كل ذلك إلا ليتحقق هذا الأثر النفسي العميق ، من أجل أن يستجيب العقل والوجدان لداعيه.

---

[٣٥] **الملك :١٤/٦٧ .**

وكتاب الله من قبل ومن بعد مُعجز في كل ناحية من نواحيه ، فإذا كان معجزا في بنائه التعبيري ونسْقه الفني باستقامته على خصائص واحدة ، وفي مستوي واحد لا يختلف ولا يتفاوت ولا تتخلف خصائصه كما هي الحال في أعمال البشر .

فإنه كذلك معجز في بنائه الفكري ، وتناسق أجزائه وتكاملها فلا فلتة فيه ولا مُصَادفة ؛ بل كان توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل ، وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها وتلبيها ، وتدفعها دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل المتكامل .

ومن هذا الإعجاز في بنائه التعبيري والفكري ، كان إعجازه في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها بأيسر اللمسات دون تعقيد أوالتواء .

ولعل هذا التأثير النفسى العميق الذى هَدفت إليه وسائل التعبير المختلفة فى القرآن ، كان محط أنظار العلماء ، كما جعلوه موضع اعتبارهم فى تقديرهم للأعمال

أو إنه كلما كان هذا التأثيرأبلغ ،كان الحكم على العمل بأنه أكثر إتقانا وجودة ، بما احتواه من سمو معاينه ، وبلاغة ألفاظه ، ودقه نظمه ، وروعة تناسقه ، وقوة إيحائه وحسن إيقاع الكلام فيه إلى غير ذلك مما يبلغ تأثيره فى النفوس كل مبلغ .

وفى هذا يقول الجاحظ " فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا عن الاستكراه ، صَنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة "[٣٦]

وكذلك الخطابى فى " بيان إعجاز القرآن " يشير فى وضوح إلى ذلك التأثير النفسى الذى يعد بحق وجها من وجوه الإعجاز فى القرآن ، وليس هذا فحسب .

بل إن الخطابى يُشيد بنفسه هنا حيث التفتَ إلى وجه غَفل عنه الكثيرون ، بينما هو جدير بكل اعتبار . فيقول (قلت فى إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك : صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ، ما يخلص منه إليه . تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور والقلوب .

فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتيانها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا[٣٧] .

ويؤكد الشيخ محمد عبده الأمر تأكيدا أكثر بأن هذا النظم البديع المحكم الذي بلغ به الأسلوب القرآني حد الروعة والإعجاز ، إنما يكمن سر الروعة والإعجاز فيه في هذا

---

[٣٦] **انظر : البيان والتبين ١٥٧/١ .**

[٣٧] **ينظر : إعجاز القرآن للخطابي ص٦٤ .**

التأثير النفسي المنقطع النظير ، والذي اختُص به أسلوب القرآن وحده دون غيره من الأساليب . وهو لذلك يقول (ولعمري إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر ولأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ، ولم يوفها أحد حقها على كثرة ما بدأوا وأعادوا فيها ، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد . وإنما هو مائة أو أكثر ...

فالقرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر ، وكل سورة منها تُقرأ بالترتيل المشبه للتلحين المعين على الفهم المفيد للتأثير .

فإن شئت أن تُشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشري ، ونظم الكلام الإلهي ، فائتِ بقارئ حسن الصوت يُسمعك بعض أشعار المغلقين ، وخطب المصاقع المفوهين بكل ما يستطيع من نغم وتحسين .

ثم يتل بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب كسورة النجم مثلا .. ثم حَكِّم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها ، ثم الفرق بين كل منها وبين كلام البشر في كل أسوب من أساليب بلغائهم . وتأثير كل من الكلامَيْن في نفسك بعد اختلاف وقعه في سمعك ؛ بل تأمل المعنى الواحد من المعاني المكررة في القرآن الكريم من أجل تقريرها في الأنفس ، ونقشها في الأذهان وافطن لاختلاف النظم والأساليب فيها .

لعلك إن تدبرت هذا تشعر بالبوْن الشاسع بين كلام المخلوقين ، وكلام الخالق ، ونحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكما ضروريا وجدانيا ، لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك ، وإن عجزت عن بيانه بقولك)[٣٨].

ويقول الشيخ رشيد رضا فى تقديمه لكتاب إعجاز القرآن للرافعى (أن الله قد أوجد بالقرآن أعظم انقلاب فى البشر بتأثيره في أنفس العرب ، إذ جعلهم بعد أميتهم أساتيذ الأمم وسادة العجم .

وما فقد المسلمون هدايته إلا لجهلهم بأسرار لغته ، لذلك يُهاجمه أعداؤه الملاحدة والمستعمرون من طريق لغته ، فلْيعلم المسلمون هذا ، ولْيحرصوا على حفظ دينهم بحفظ لغتهم ، وممارسة آدابها وأسرار بلاغتها ، ولتكن غاية هذا كله فهم القرآن كما كان فهمه سلفنا الصالح .. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾)[٣٩] ،[٤٠]

أما الرافعى ، كاتب " إعجاز القرآن " فقد كان من الطبيعى أن لا يغفل بدوره عن هذا التأثير النفسى فى أسلوب القرآن ، فكان له أيضا فى هذا الموضوع وقفات ، بل إنه منذ الصفحات الأولى من كتابه قد انفعلت نفسه بآيات هذا القرآن العظيم ، فأخذ يُشيد بألفاظه ومعانيه ، ومدى تأثيرهما معا فى نفسه ، وفى نفوس الناس أجمعين ، فيقول :

---

[٣٨] **ينظر : تفسير المنار ١٩٨/١ .**

[٣٩] **الأحزاب آية "٤"**

[٤٠] **مقدمة إعجاز القرآن للرافعي .**

(ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا ، فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنهما جنتها وضرامها ، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك فى وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حُمَّى القلوب ، وعذوبة تُرويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، ونور تبصر به فى مرآة الإيمان وجه الأمان .

وبينا هى ترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتحلق فى أوراقها من معانى العبرة معنى العبير ، وتهب عليها بأنفاس الرحمة ، فتنم بسر هذا العالم الصغير .

ثم هى بينا تتساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان ، وتمثل للمذنب حقيقة الإنسانية حتى يظن أنه صنف آخر من الإنسان .

إذا هى بعد ذلك أطباق السحاب ، وقد انهارت قواعده والتمعت ناره ، وقصفت فى الجو رواعده ، وإذا السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت فى صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة تتبعها الرادفة .

وإنما هى عند ذلك زجرة واحدة ، فإذا الخلْق طعام الفناء وإذا الأرض (مائدة).. توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه ، قالوا : هذا هو السحر المبين . بلى ، إنه لسحر ، يغلب حتى يفرق بين المرء وعادته ، وينفذ حتى يتصرف بين القلب وإرادته ، ويجرى فى الخواطر كما تصعد فى الشجر قطرات الماء ، ويتصل بالروح فكأنما يمد لها بسبب الى السماء .

وبلى إنه لشعر ولكن زنةَ مبانية فى معانيه ، وزينة معاينه فى مبانيه ، فكل معنى ولا جرم من بحر ، وكل لفظ كلؤلؤة فى النحر .

وإنه لشعر إذ هو آيات لا يجانس كلامها البديع غير كمالها وحقيقة فى الوجود لم يكن يُعرف غير خيالها ، ومرآة فى يد الله تُقابل كل روح بمثالها)[٤١] .

وما قاله الرافعى فى هذا الكلام لم يكن مجرد انبهار منه بآيات الله المحكمات ، وإنما هو كذلك مَظهر من مظاهر التأثير الكامنة فى هذا القرآن الخالد ، تَرَدد صداه فى أعماق هذا العالِم والأديب فعبرعنه بقلبه ولسانه ، ثم أخذ بعد يتلمس له عِللا وهو يتحسس مواطن هذا التأثير فى النفوس .

ويضيف الرافعى أن الطريقة النفسية التى سلكها القرآن فى أسلوبه بعيدا عن تلك الطريقة المنطقية التى لا تعرف طريقا إلى الوجدان . فالقرآن قد أنزله الله آيات محكمات تخاطب العقول لتدرِك ، والقلوب لتستيْقنَ ، وهى الطريقة النفسية المؤثرة التى تكمن دائما وراء الأسلوب القرآنى ولذا فإنهم جميعا يقفون أمام حقيقة القرآن

---

[٤١] **ينظر : إعجاز القرآن ص ٨-١١ بتصرف .**

المعجز ، وقد عبر عنها رب العزة بقوله " لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ " [٤٢].

إذن .. فقد كان هناك من وراء كل ما قيل من وجوه الإعجاز هذا الإعجاز النفسي الذي بلغ مداه في القرآن الكريم وأصبح تأثيره في نفوس قارئيه وسامعيه شهادة له على مدى التاريخ .

وكان أعجب ما في هذا الإعجاز أنه على عِظَم تأثيره حَق كله ، فلم يَحْدث مرة واحدة أن حاد عن الحقيقة مستغلا وسائل تأثيره العديدة حتى يؤمن الناس او يقتنعوا بما يقول .

فلم يكن القرآن هو الذي يلجأ إلى أساليب التحايل ليجر الناس جرًا إلى الإيمان به والإنصياع له ، وهو الذي أنكر على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُكره أحدا على الإيمان قال تعالى : " أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ " [٤٣] .

والحق أن المستمع إلى القرآن الكريم الذي يُتلى في خشوع مع الالتزام بالأداء الشرعي للتلاوة الذي يُسمي ترتيل القرآن كما يسمي قديما " تجويد القرآن " بمعنى قراءة القرآن بإخراج الحروف من مخارجها مع التزام قواعد المد والغن والإخفاء ، والإدغام .. _ كما ورد عن رسولنا صلى الله عليه وسلم ، يجد للقرآن إيقاعا ، أو يجد له وقعا في نفسه حتى ولو لم يكن مسلما ، فسمعه أحد الألْمان من أخ مسلم مهاجر ، فأنصت حتى فرغ من صلاته ، ثم طلب منه أن يتلو ما كان قد سمعه في صلاته بنفس الأداء ، فأعاد التلاوة ، ثم استعاد التلاوة للمرة الثالثة .. وكان المُستمِع " موسيقارا كبيرا " فقال : ما ينبغي لهذا الكِتَاب بكل الألحان التي جمعها في نسق فريد إلا أن يكون كتاب السماء المعجز .. وكان ذلك مدخلا إلى اعتناقه الإسلام .

وقد ثبت تأثير القرآن على كل من يسمعه ولو كان كافرا بنسبة ما ، تظهر في ذبذبات تَصدر عن جسد السامع للقرآن وصدق الله العظيم حيث يقول الله :" ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ "[٤٤] .

---

[٤٢] **الحشر : ٢١/٥٩ .**

[٤٣] **يونس : ٩٩/١٠.**

[٤٤] **الزمر : ٣٢٣ .**

وقال تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " [٤٥] .

ومن ثم رأينا بعض المشركين ينسبون القرآن إلى الشعر ويعدون الرسول شاعرا لقوله : تأثير شعر الشعراء إلحاد فأنزل الله ما ينفي به هذه الدعوي فقال :

" فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ " [٤٦]

وهذا الاتجاه اتجاه مسموم كذلك ، لأنه يعني أن القرآن الكريم لون من الأدب العاطفي المؤثر بخياله ، لا بما فيه من الحقائق ، وذلك يعني تنحيته عن البحث العلمي الذي يعتمد على صدق الحقائق ، ويدعو إلى الارتياب في قصص القرآن وأخباره وفيما يطرحه على الناس من وعد أو وعيد ، ولا يجعله جديرا بأن يكون دستورا للبشرية يضع لها الأصول الثابتة .

وقد ذهب إلى هذا المستشرقون فعلا ، وتبعهم بعض الكتاب الشيوعيين المنتمين إلى الاسلام .

ثم أن كل ما جاء في القرآن جاء خاليا من المبالغات التي هي طابع الشعر والنثر الخطابي ، وطابع كتب التاريخ .

بل إن كل ما فيه تقوم الدلائل على صحته حتي فيما كان غيبا مجهولا عند نزول القرآن ، فعندما نزل خبر عاد وثمود ، ولم يكن للعرب علم بما رُوى عنهما ثم انكشف بعد ذلك أن خبرهما موجود فى كتب بطليموس ، فضلا عن أن كتب اليونان والرومان ذكرت أنباءهما ، وذكرت اسم عاد مقرونا باسم " **عاد رام** " وصدق الله إذ يقول :" وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ "[٤٧] .

والحق أن الأذن الموسيقية المرهفة تُدرك من جمال نظم القرآن مايجعله فوق كل نظم من القول ، حتى نشأ حول النظم فى القرآن وانسجامه دراسة مطولة فى بلاغة القرآن وأسرار الإعجاز وممن اشتهر بذلك " عبدالقاهر الجرجانى " فى كتابيه " أسرار البلاغة " و " إعجاز القرآن " .

إذن فالقرآن وحده بما أودع الله فيه من روعة البيان وقوة التأثير فى الوجدان هو الذى نفذ إلى القلوب حتى لانت وأذعنت ، وإلى العقول حتى استجابت وآمنت ،

---

(٤٥) **الحشر : ٢١/٥٩ .**

(٤٦) **الطور :٢٩/٥٢-٣١ .**

(٤٧) **فاطر : ٣١/٣٥ .**

وشواهد ذلك كثيرة حسبنا ذكر واحد منها وهو قصة إسلام عمر بن الخطاب رضوان الله عليه وفيها روايات كثيرة :

منها : رواية لعطاء ومجاهد نقلها ابن اسحاق عن عبدالله بن أبى نجيح تذكر أن عمر رضى الله عنه قال : " كنت للإسلام مباعدا وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ، فخرجتُ أريد جلسائى أولئك ، فلم أجد منهم أحدا ، فقلت " لو أننى جئت فلانا الخَمَّار " ، وخرجت فجئته ، فلم أجده ، قلت : لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعا أوسبعين ، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى وكان إذا صلى استقبل الشام . وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكانه بين الركنيْن : الركن الأسود ، والركن اليمانى . فقلت حين رأيته والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع مايقول وجال بنفسى أننى لو دنوت منه أسمع لأروعنَّه . فجئت من قبل الحِجْر فدخلت تحت ثيابها ، مابينى وبينه إلا ثياب الكعبة ، فلما سمعتُ القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام " .

ومنهما : رواية لابن اسحاق تقول ما ملخصه : أن عمر خرج متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورهطا من أصحابه قد اجتمعو فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء . وفى الطريق لقيه نعيم بن عبدالله فسأله عن وجهته ، فأخبره بغرضه ، فحذره بنى عبد مناف ، ودعاه أن يرجع الى بعض أهله :خِتنة سعيد بن زيد بن عمرو ، وأخته فاطمة بنت الخطاب زوج سعيد ، فقد صبا عن دينهما . فذهب إليهما عمر ، وهناك سمع خبابا يتلو عليهما القرآن فاقتحم الباب ، وبطش بختنه سعيد ، وشج أخته فاطمة . ثم أخذ الصحيفة بعد الحوار وفيها سورة "طه ".. فلما قرأ صدرا منها قال : " ما أحسن هذا الكلام وأكرمَه " . ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلن إسلامه فكبر النبي تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم .

وكل الرويات تُجمع على أنه سمع أو قرأ شيئا من القرآن ، فكان هذا داعيه إلى الإسلام ، ومن التعمل الذي لا داعي له أن تغض النظر عن العوامل النفسية الأخري في تارخ عمر .

ولكن هذه العوامل لا تنفي أنه كان لسحر القرآن في نفس عمر ، ذلك الأثر الحاسم في الإسراع به إلى الإسلام .

الخاتمة

القرآن الكريم دون سائر الكلام له وقعه فى نفس السامع وجمال أدائه الصوتى أحد مميزاته التى تفصح عن مدى فصاحة القرآن الكريم وبيانه ، مما جعل لأدائه بالغ التأثيرفى النفس الإنسانية .

المراجع

١) الحشر : ٥٩/٢١ .

٢) إعجاز القرآن ص ٤٦ .

٣) ينظر : صلاح الدين عبد التواب – رسالة دكتوراة في الإعجاز القرآني بكليةاللغة العربية بالقاهرة ص٣٢٧.

٤) ينظر : الأصول الفنية للأدب ص ٢٢.

٥) المدثر : ٧٤من الآية رقم ١٨-٢٤.

٦) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٢٦ .

٧) الإسراء : ١٥/ من الأية رقم١٠٦- ١٠٩.

٨) الأعراف : ٢٠٤/٧.

٩) المزمل : ٧٣/٤ .

١٠) الكشاف : ٢١٦/٣ .

١١) ينظر : تأويل مشكل القرآن ص٣.

١٢) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ص ٩٠ .

١٣) الطور : ٥٢/من الأية ١-٤ .

١٤) طه : ٢٠/ من الآية ١-٨ .

١٥) الفجر : ٨٩/من الآية ١-٤ .

١٦) الفاتحة :١/الآية ٣،٤ .

١٧) سورة ق : ٥٠/الآية ١، ٢.

١٨) ينظر : البرهان ٧٢/١- ٧٥ .

١٩) ينظر : البرهان ٧٨/١ .

٢٠) ابراهيم : ١٨/١٤ ى.

٢١) النحل :١٨/١٦ .

٢٢) ينظر : البرهان ٨٦/١ .

٢٣) القارعة : ١٠١/ من الآية ٦-١١ .

٢٤) الحاقة :٦٩/ من الآية ١٩-٢٩ .

٢٥) الفجر ؛: ٨٩/ من الآية ١-٥ .

٢٦) الشعراء : ٢٦/ من الآية ٧٥-٨٢ .
٢٧) القمر : ٥٤/ من الآية ٦-٨ .
٢٨) ينظر : إعجاز القرآن ص٢٢٢-٢٢٩ .
٢٩) مريم : ٤/١٩ .
٣٠) الفجر : ٨٩/ من الآية ٢١-٢٥ .
٣١) الفجر : ٨٩/من الآية ٢٧ -٣٠ .
٣٢) أل عمران : ٣/من الآية ١٩٠- ١٩٤ .
٣٣) ينظر : صلاح الدين عبد التواب – الدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآني بكلية اللغة العربية بالقاهرة ص ٣٤٠-٣٤١ .
٣٤) ينظر : النبأ العظيم – لمحمد عبد الله دراز ص ٩٥-١٠٠ .
٣٥) الملك :١٤/٦٧ .
٣٦) انظر : البيان والتبين ١٥٧/١ .
٣٧) ينظر : إعجاز القرآن للخطابي ص٦٤ .
٣٨) ينظر : تفسير المنار ١٩٨/١ .
٣٩) الأحزاب آية "٤"
٤٠) مقدمة إعجاز القرآن للرافعي .
٤١) ينظر : إعجاز القرآن ص ٨-١١ بتصرف .
٤٢) الحشر : ٢١/٥٩ .
٤٣) يونس : ٩٩/١٠.
٤٤) الزمر : ٣٢٣ .
٤٥) الحشر : ٢١/٥٩ .
٤٦) الطور :٢٩/٥٢-٣١ .
٤٧) فاطر : ٣١/٣٥ .